مركز دراسات الوحدة العربية

# ربوع بلادي

٦

سلسلة كتب مصورة

لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

# مسقط

شريف الراس

AJ
915.353
R222m

A.J
915.353
R222m

مركز دراسات الوحدة العربية

# ربوع بلادي

سلسلة كتب مصورة لتعريف الناشئة العرب بمدن وطنهم الكبير

٦

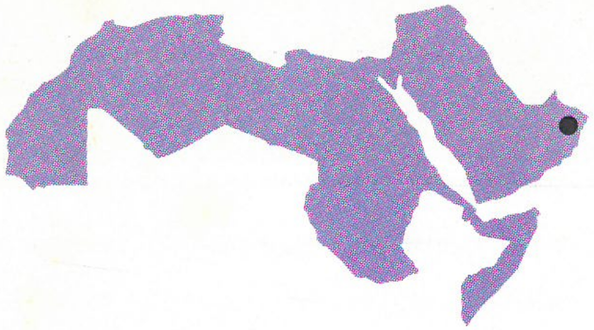

# مسقط

شريف الراس

رسوم: زياد حيدر وآخرون    خطوط: خليل ابراهيم

أنا صديقتكم عزّة من مسقط .. هل تعرفون أين تقع مدينتنا الجميلة مسقط ؟ ..

عندما تشرق شمس الصباح فإن أول شعاع ذهبي يصل منها إلى وطننا العربي إنما يصل إلى بيتنا . ذلك لأن بيتنا مبني على شاطئ مسقط . ومسقط تقع على الشاطئ الشرقي لوطننا العربي . وهي عاصمة القطر العماني . ومدينتنا الجميلة مسقط صغيرة الحجم إذا قارناها بمدى إتساع القطر العماني الذي هي عاصمته . فالقطر العماني تبلغ مساحته ٣٠٠ ألف كيلومتر .. وأراضيه التي تمتد في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية فيها مناطق صحراوية واسعة ، كلها رمال ، وفيها مناطق جبلية ضخمة أشهرها الجبل الأخضر الذي ترتفع بعض قممه إلى علو ٣٠٠٠ متر ، وفيها سهول زراعية خصبة في الساحل وفي الداخل .. ولعمان أيضاً جزر عربية كثيرة أشهرها جزر كوريا موريا.

ونحن سكان عمان مليون ونصف مليون مواطن عربي .



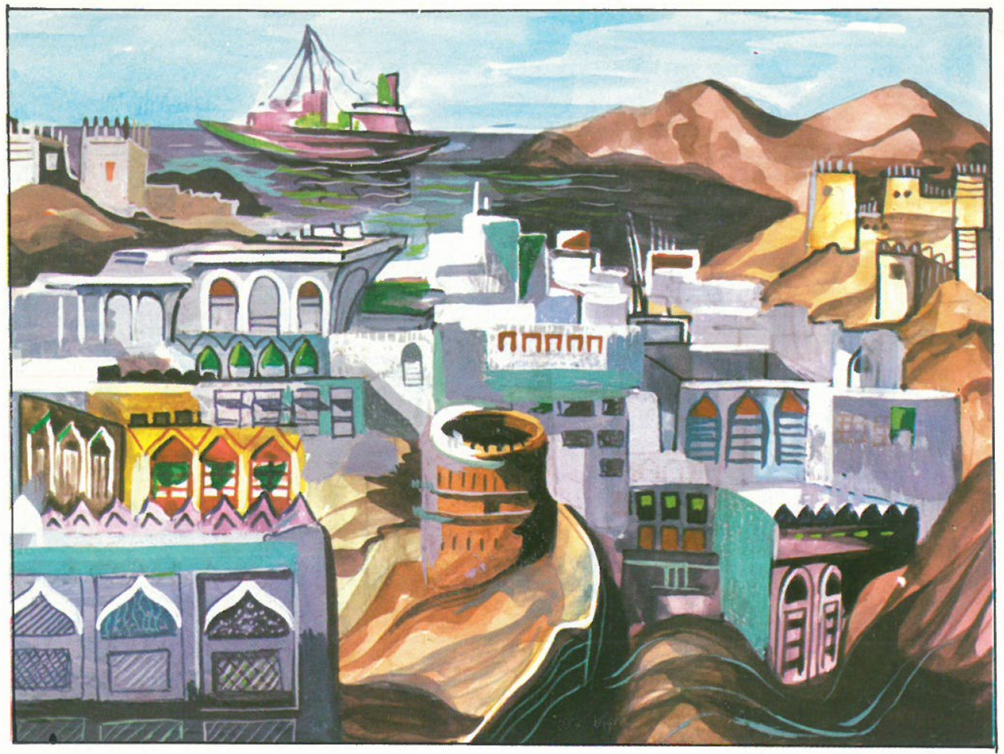

ومدينتنا الجميلة مسقط مبنية حول خليج صخري عميق ، يشكل ملجأ طبيعياً لحماية السفن من عواصف البحر . وقد قال البحار العربي أحمد بن ماجد ، بحماسة وطنية : « إن مسقط ميناء لا مثيل له في العالم » .. أنتم تعرفون أحمد بن ماجد . فهو بحار عربي شهير ، ولد في مدينة رأس الخيمة قبل حوالي خمسمائة سنة ، ونشأ وتعلم في مسقط .. قلت لأستاذنا « ألم يكن ابن ماجد مبالغاً في كلامه ؟ » ..... قال : لا يا عزة . فقبل ألف سنة كان يقال عن صحار القريبة من مسقط والمشابهة لها : « إنها أكبر ميناء في البلاد الاسلامية » و « إنها المركز التجاري للعالم كله » .. وأجدادنا عرب عمان مشهورون منذ القدم بأنهم من أمهر البحارة وأذكاهم وأشجعهم . وكانت سفنهم تصل إلى شواطئ أفريقيا وإلى شواطئ الهند والصين وأندونيسيا . وهم الذين نشروا الثقافة العربية الإسلامية هنالك . وأول إنسان في العالم وصل الصين كان تاجراً من مسقط اسمه أبو عبيدة عبد الله بن القاسم . وصل إلى الصين بحراً سنة ٧٥٠م . واستغرقت رحلته سنتين قطع خلالها ٧٠٠٠ كيلومتر .

اسمَعُوا هٰذه الحكاية : رَكِبْنا سَيّارةً كبيرةً وسافَرْنا مع أُستاذِنا في رِحْلةٍ مدرسية الىٰ بلدةِ « بَهْلا » التي تَقَعُ في منطقةٍ جَبَليَّةٍ عالية . وَفي الطريق أُخْبَرنا الأُستاذُ أنّ اسْمَ مدينةِ بَهْلا آتٍ من اسْمِ سُكّانِها أبناءِ قبيلةِ باهِلَة العربية العريقة التي أَنْجَبَتْ البَطَلَ قُتَيْبَةَ بنَ مُسْلِمٍ الباهِليّ ، الذي قادَ الجيوشَ العَرَبية بَرّاً حتى حدودِ الصين ... وَحينَ وَصَلْنا إلىٰ بَهلا الجميلة أَدْهَشَنا أنْ نَرىٰ بيوتَها لاتزالُ مبنيةً علىٰ حالتِها القديمةِ التي بُنِيَتْ عليها قبلَ حوالي ٤٠٠ سنة . وحولَ البيوتِ مِساحاتٌ واسِعةٌ من النخيل . والمُدهِشُ أكثر: هذا السُّورُ العالي القديمُ الذي يُحيطُ بالبَلْدَةِ وَبَساتينِها علىٰ امتدادِ ١١ كيلو متراً . وكانتِ المُفاجأةُ أنَّنا لقينا في هذه البلدةِ العُمانيةِ النائيةِ فنّانينَ عَرَباً جاءوا من العراقِ ليُصَوِّروا فيلماً سينمائياً عن قصة كلكامش . أُخْبَرنا مُخْرِجُ الفيلمِ أنَّ كلكامش كانَ بَطَلاً أُسطورياً عظيماً من أُبطال تاريخنا العربي القديم . ولكنَّ المدينةَ العراقيةَ التي نَشَأَ فيها - واسمُها : الوركاء - قد تَهَدَّمَتْ وَصارتْ أطلالاً . لذلكَ جاءوا ليصوروا مشاهد الفيلم في بَهْلا لأنَّها تُشبهُ الوركاء .

أَخْبَرتُكُم سابقاً أنَّ الليمونَ الذي نُسَمّيهِ في مَسْقَط « لومي » - هوَ مِنْ أَهَمِّ مُنْتَجاتِنا الزراعية . ونحنُ نُصَدِّرُهُ إلىٰ الخليج العربي . وذاتَ مَرّة مَلأَ أبي سفينَتَهُ الكبيرةَ بشُحْنَةٍ مِنَ اللومي العُماني الممتاز وأَخَذَها إلىٰ مُدُن الخليج العربي . وحينَ عادَ من رِحْلَتِهِ أَخْبَرَنا أنّ أهلنا هُنالكَ في مُدُنِ الخليج يُسَمّونَ هذا اللومي بإسم « نومي البصرة » .. قالت أُمي : « وما الفارق ؟ .. أَلَسْنا نحنُ وأَهلَ البصرة شعبٌ واحد ؟ » . فقالَ جَدّي : « هذا صحيحٌ .. وسأُخبركم بقصةٍ تُؤَكِّدُ عُمْقَ الصِّلَةِ بينَنا وبينَ البَصرةِ رغم المسافةِ الطويلة » .. فعندَنا في الجَبَلِ الأخضَرِ وادٍ خَصيبٌ اسمُهُ وادي بَني خالد .. يَمتازُ بوَفْرَةِ مِياهِهِ . إذْ أنَّ تحتَ صُخورِهِ يُوجَدُ نَهْرٌ جَوْفي غَزيرٌ جداً . والفلاحونَ فتحوا سواقيَ تأخُذُ الماءَ من ذلكَ النهرِ الجوفي وتَنْقُلُها إلى البساتين المتفرقة . ومياهُ هذا النهرِ لا تجفُّ أبداً ، حتىٰ في أيامِ الصّيف .. سألتُ فلّاحي وادي بني خالد ، في أعالي الجبل الأخضر ، هذا السؤال : تُرىٰ مِنْ أينَ ينبعُ نهرُكم هذا ؟ .. قالوا : إنه ينبُعُ من البصرة بالعراق » .. فقال أبي : ما أجمل الايمان الشعبي الذي يُلغي المسافات الجغرافية .

فِي بيتِنا خِزانةٌ مليئةٌ بالكتبِ القديمة . كانَ جَدّي قد نَسَخَ أكثرَها بخطِّهِ الجميل .
ذلكَ لأنَّهُ قبلَ عام ١٩٧٢ لم يكن في مُدُنِ عُمان كلِّها مَطابع أو جرائد . رغمَ وجودِ خِزانةِ كُتُبٍ قديمة في كلِّ بيتٍ تقريباً ... قرأتُ في أَحَدِ دفاترِ جَدّي هذه الكلمات التي نَقَلَها بخطِّ يَدِهِ الجميل ، مُدُنُ عُمان مِنْ ألطفِ القرى . يَسْتَوْقِفُكَ جمالُها . فيها الأنهارُ الجاريةُ والبساتين الغَنّاء . ابن بطوطة .. القرن ١٥ ❋ أَهْلُ عُمان هُمْ أكثرُ الناسِ نَظافةً وأناقةً وحُسْنَ هِنْدام . جيمس باكنجهام . القرن ١٩ ❋ يُعامِلُ العُمانيونَ نساءَهُمْ مُعامَلةً لطيفةً حَسَنَة . ولعلَّها أَلطَفُ مُعامَلَةٍ من أيِّ مَكانٍ آخر . وليم بلغراف . القرن ١٩ ❋ السُّلوكُ الحَسَنُ والإنسانيةُ الرّفيعةُ هما الصفتانِ المميّزتانِ لأهْلِ عُمان . ويلفِتُ النَّظَرَ في أهالي مَسْقَط عَظَمَةُ إنسانيتِهم ومَدى تَحَضُّرِهِم وإكرامِهِم للضيف .

إنَّ الأخلاقَ الحَميدَةَ والأَدَبَ الجَمَّ وحُسْنَ السُّلوكِ أُمورٌ تنبثقُ عن أهلِ عُمان بصورةٍ طبيعيةٍ انبثاقاً عفوياً . الكسندر هاملتون . القرن ١٨ .

يُعْجِبُني في الليلِ أنْ أُطِلَّ على البَحْرِ لأَتأمَّلَ مَنْظَرَ قَوارِبِ الصَّيْدِ المنتشرةِ عَلى مَساحةٍ كبيرةٍ فوقَ مياه البحر الصافية . وتُشِعُّ منها أضواءٌ ناريَّة زَجْاجيةٌ تَعْكِسُ على صَفْحَةِ الماءِ ظِلالاً بهيجة . وفي الصَّباحِ يعودُ الصَّيادونَ وقد امْتَلأتْ قَوارِبُهُمْ بالأسماكِ من مُختلفِ الحُجومِ والأنواع . فَمِياهُ مَسْقَطَ تَغْلي بالسَّمَكِ غَلَياناً . والسَّمَكُ يُشَكِّلُ المادَّةَ الغِذائيّةَ الرئيسيّةَ في المائِدَةِ العُمانية . فالناسُ يَستهلكونه بكثرة ، سواءً في مُدُنِ الساحل ، أو في مُدُنِ الداخل البعيدة التي كانَ السّمكُ يُنْقَلُ إليها بِبُطْءٍ على ظُهورِ الجِمال ، فأصْبَحَ مُنْذُ سنواتٍ قليلةٍ فقط يَصِلُ إليها طازَجاً بالسيارات ، بعدَ أن تَمَّ فَتْحُ طُرُقٍ مُعَبَّدَةٍ في الجِبال . وَلكنْ نَظَراً لأنّ الأسْماكَ وفيرةٌ جداً ، بحيثُ لا يمكنُ للناسِ أنْ يأكلوها كُلَّها ، فإنَّ الصّيادينَ يفرشونَ على رِمالِ الشاطئِ كمياتٍ هائلةً من صَيدِهم لِتَجِفَّ بالشمسِ وتُصْبِحَ عَلَفاً للماشية .. وحديثاً فقط أُنشِئَتْ مَعامِلُ عَصْريةٌ لتعليبِ هذه الأسماكِ والاستفادةِ منها كَثروةٍ غذائيةٍ عظيمة .

عندنا في مَسْقَط قلعتانِ قديمتانِ مَنيعَتان . قلعةُ ميراني وقلعةُ جلالي . سألتُ أُمي : « لِمَ كانَ اسمُ هاتينِ القلعتينِ غريباً هكذا ؟ » قالت أُمي بحَسْرَة : « لاأدري . لأنّني حينَ كُنْتُ طفلةً كنتُ محرومة من التعليم . فحتّى عام ١٩٧٠ لم يكُنْ في مَسْقَط ولا في عُمانَ كُلّها طفلةٌ واحدةٌ تتَعَلَّمُ في مدرسة . لم تكُنْ عِندَنا مدارس مثلَ اليوم » .

سألتُ جَدّي عن هاتينِ القَلعتينِ فقال لي : اسمعيْ هذِهِ القِصَّةَ يا عَزَّة ..

في عام ١٥٠٦ وَصَلَ إلى مَسْقَط كاتِبٌ بُرتغالي اسمُهُ الفونسو ألبوكيرك . فأدهَشَتْهُ مَسْقَطُ وَكَتَبَ في وَصْفِها قائلاً : إنَّ مَسْقَطَ مدينةٌ ضخمةٌ كثيرةُ السُّكان ، وفيها بساتينُ وَحَدائقُ وَمزارِعُ للنَّخيل وبُرَكٌ من الماءِ الجاري . أمّا ميناؤها فَلَهُ شَكْلُ حُدْوَةِ الحِصانِ ويُوَفِّرُ الوِقايَةَ من كُلِّ الرِّياح . ومَسْقَط سُوقٌ لِتَصْديرِ التُّمورِ والخُيولِ العربيةِ الأصيلة وتزويدِ السُّفُنِ بالقمحِ والأطعِمَة . وهيَ مدينةٌ على دَرَجةٍ كبيرةٍ من الأناقةِ والجمال . ومَنازِلُها بَديعَةٌ جداً ...

تَنَهَّدَ جَدّي بِحَسْرَةٍ ثم قال : إنَّ ذلكَ الكاتبَ البرتغالي « ألبوكيرك » لم يكن كاتباً أديباً بل كانَ غازياً استعمارياً جِلْفاً . وكانَ يُلَقِّبُ نفسَهُ بلَقَبِ « كلب البحر » وقدجاءَ على رأسِ حَمْلَةٍ عسكريةٍ ضخمةٍ بأُسطولٍ من السُّفُنِ المُزَوَّدَةِ بالمَدافع . وأجدادُنا يومَذاك لم يكونوا قد عَرَفوا المَدافعَ بَعْدُ . فهاجَمَ البوكيرك مدينةَ مَسْقَط وبقيةَ مَوانِئِنا العربيةِ التي على خليجِ عُمان . واحْتَلَّها وَنَشَرَ الخَرابَ فيها ولكي يَتَمكَّنَ المستعمرونَ من السَّيْطرةِ على البلادِ بَنَوا قلعَتَيْ مِيراني وجلالي في مَسْقَط مثلَما بَنَوا قِلاعاً وحُصُوناً كثيرةً أُخرى في مُختَلَفِ مَناطِقِ عُمان .. وظَلّوا في احتلالِهم بلادَنا حوالي ١٦٠ سنة ، لم تتوقفْ خِلالَها مُقاوَمَةُ شعبِنَا لهم .. وَظَلَّ مجاهدونا البواسل يُقاتلونَ أولئكَ المُحتَلّينَ حتىٰ طَرَدُوهم وأجْلَوْهم عن مُدُنِ عُمانَ جميعاً .. على أنَّ أجْمَلَ القِلاعِ العُمانيةِ هي القِلاعُ التي شَيَّدَها أهْلُ عُمانَ بعد ذلكَ . وأهمُّها قلعةُ نَزْوىٰ وقلعةُ جبرينَ اللتانِ بناهُما القائدُ اليعربي سُلطانُ بنُ سَيْفٍ وابنُهُ بَلْعَرَب اللذيْنِ تَمَّ طَرْدُ البرتغاليينَ بِعَهْدِهِما في أواخِرِ القرنِ السابعِ عشر .

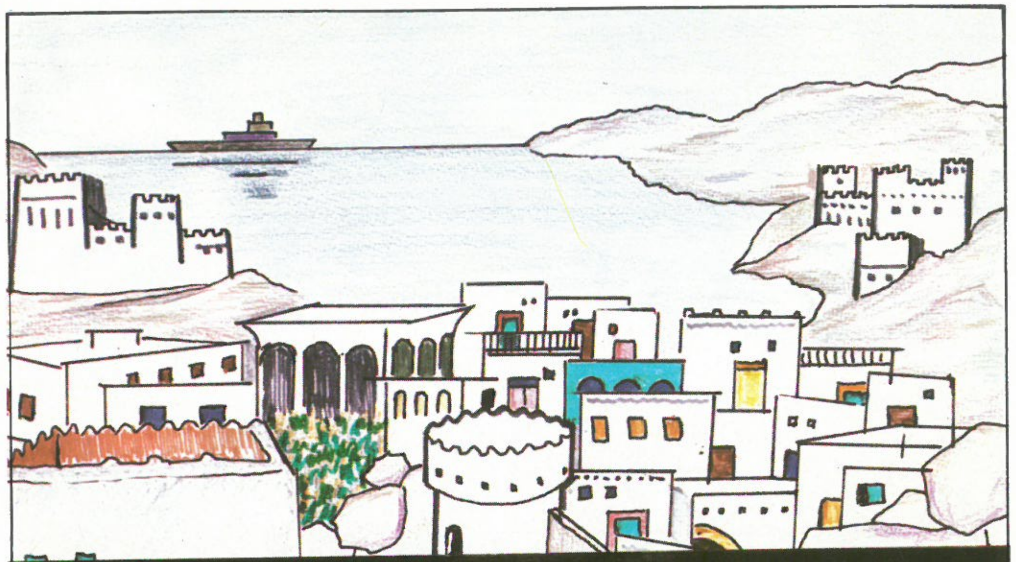

وَقَفْتُ ذاتَ يَومٍ على رَصيفِ ميناءِ مَسْقَط أَنتظِرُ عَوْدَةَ سفينةِ أبي .. ففوجئتُ بسَمكةِ دلفين كبيرةٍ تُقْبِلُ نحوي ثُمَ تقفزُ في الهواءِ بِمَرَحٍ وتَسْقُطُ في الماءِ فَتُثيرُ رَذاذاً كثيراً .. وَلَمْ يَلْبَثْ أَن انْضَمَّ إليها سِرْبٌ من الدلافين المَرِحَةِ التي كأنَّها جاءَتْ لِتُسَلّيَني وتُداعبَني . كانت ألعابُها حولَ الزوارِقِ الخشبيّةِ طَريفةً ومُسَلّيةً .. أنا أُحِبُّ أسماكَ الدلفين لأنَّها - رغمَ ضَخامَتِها - غيرُ مؤذية .. أمّا السمكةُ الخَطِرَةُ والمؤذية فهي سَمكةُ القِرْشِ الضَّخْمَةُ .. ولكنَّ صَيّادينا العُمانيين يعرفونَ كيفَ يتغلبونَ على أسماكِ القِرشِ الخَطِرَةِ وَيَصطادونها .. وجُلودُ أسماكِ القِرشِ تُجَفَّفُ وتُصَدَّرُ إلى الخارج .. والحِيتانُ الضخمةُ موجودةٌ عندَنا في مِياهِ خليجِ عُمان . ولكنْ يَبْدُو أنَّها تحبُّ أنْ تلعَبَ بالماء . وقدحَدَّثني أبي ذاتَ مرةٍ عن حُوتٍ ضخمٍ جداً سارَ موازياً لسفينهِ أبي .. «كأنَّهُ يُريدُ أنْ يُثْبتَ لنا أنه لايقلُّ حَجْماً عن سفينتِنا . وَبَدَتْ لي صَداقَتُهُ خَطِرَةً بالنسبةِ إلينا . فقد غَطَسَ تحتَنا ثم ظَهَرَ مِنَ الطَّرَفِ الآخر وأَخَذَ يتنفّسُ بِصَوْتٍ مُرتفع . وبعدَ ذلكَ غَطَسَ عميقاً مُسَبِّباً أمواجاً عاليةً وكميّةً كبيرةً من الفُقاعات .. وَغابَ عَنّا . فشكرنا اللهَ على ذلكَ» .

إذا قررتم زيارة مسقط الجميلة فتعالوا إلينا في فصل الشتاء . لأن الطقس عندنا في فصل الشتاء معتدل ولطيف . حيث تتراوح درجة الحرارة بين ١٨ و ٢٨ درجة مئوية . أما في الصيف فأن حرارة الطقس تكون شديدة لاهبة . ونحن أهل مسقط نهرب من الحر إلى البحر للسباحة بمياهه المنعشة . خصوصاً بعد أن صارت عندنا مسابح حديثة ... وهناك من يذهبون للاصطياف في أعالي الجبل الأخضر حيث الطقس المنعش والمناظر الطبيعية الخلابة وسواقي المياه العذبة المتدفقة التي نسميها « الأفلاج » ، والبساتين والفواكه والخضروات الجبلية الممتازة ... وأما العائلات الغنية فإنها تقضي الصيف في منطقة « السيب » الساحلية القريبة من مسقط . هناك بنت كل عائلة بيتاً خاصاً للاصطياف وسط البساتين الوارفة الظلال . وهي بيوت قديمة وجميلة . لأن عادة الاصطياف عادة قديمة عند أهل مسقط ... وهناك في منطقة السيب قد يقوم المصطافون بزيارة مطار السيب الدولي ، أكبر مطار في عمان . وقد بني سنة ١٩٧٣ .

زارنا في المدرسة شاب لبناني قال إنه رسام . وقد جاء إلى مسقط ليرسم بيوتها لأن المدن العمانية لا تزال على شكلها العربي الأصيل الجميل . أحببت أن أعرف اسم مدينته فقال : « أنا من مدينة صور على شاطئ لبنان » . ظننته يمزح . وأخبرته أن صور مدينة عمانية لا تبعد عن مسقط كثيراً . فأخبرني بأن وطننا العربي فيه ثلاث مدن قديمة اسمها صور . صور التي على شاطئ عمان . وصور التي على شاطئ لبنان . وصور التي على شاطئ تونس .. وقال أيضاً : « عندنا هنا في جنوب عمان نجد منطقة حضرموت . وفي تونس توجد حضرموت ثانية .. وهنا في شمال عمان منطقة اسمها الشام . وعندنا بلاد الشام التي تضم سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن » .. سألته عن سر تشابه هذه الأسماء فقال : « لأن الناس الذين كانوا يعيشون في هذه المناطق المختلفة من وطننا في الزمن القديم جداً قبل الإسلام ، كانوا نفس الناس ، وهم أجدادنا العرب القدامى » . قلت : « إذن كم هي قديمة وحدة أمتنا ووحدة وطننا ؟ » .

يُمكنكم أنْ تأتوا لزيارتنا بواسطةِ السّيارة . فَقَبْلَ عام ١٩٧٠ لم يكنْ عندَنا في عُمانَ كلّها أيُّ طريقٍ للسيارات . أمّا الآنَ فإنّكم تجدُونَ طريقاً ساحِلياً حديثاً مُعَبّداً . يَبْدأُ من شرقي الأُماراتِ العربيةِ المتحدة ويمتدُّ حتى مدينَتِنا مَسْقَط ، بطول ٢٣٥ كم. وهو طريقٌ سيدهشكم بجمالِ المناظِرِ الطبيعيةِ على جانبيه . إذ يَظَلُّ البَحْرُ على يَسارِكُم يُرافقكم بمياهِهِ الصافيةِ وأمواجِهِ المُنْعِشَة وشواطئهِ الصَخْرِيَّةِ البَديعة .. وعن يَمينكم تَظَلُّ مَناظِرُ البساتينِ الغنّاء تتتالى . فَهُنا يَمْتَدُّ سَهْلُ «الباطنة» الزراعي الخصبُ المليءُ ببساتينِ النخيلِ والليمونِ والبرتقالِ والموزِ والرمّانِ والخوخِ والمشمش .. وَخَلْفَ سَهْلِ الباطنةِ تَرَوْنَ مِن بَعيدٍ مُرْتَفَعاتِ الجَبَلِ الأخضرِ البديعة . وفي طريقِكم هذا تَمرّون على مدن : شناص ، صُحار ، الخابور ، المصنعة ، بركا ، السيب ، مطرح ، مسقط .. وهي جميعاً مَوانِئُ عربيةٌ قديمةٌ على خليجِ عُمان . ولا يَدْري الانسانُ أيُّها أجْمَلُ مِنَ الأُخرى . رغمَ أنها متشابهةٌ بجمالِ أبنيتِها العربيةِ القديمة ومتشابهةٌ بِلُطْفِ أهلِها وكثرةِ فواكِهِها .

كيف أَختتمُ رسالتي إليكم ؟. كنتُ أُحبُّ أنْ أُحدِّثكم عَن الحيواناتِ البرّية والفراشاتِ النادرة التي لاتزالُ موجودةً عندنا في جبالِ عُمان وَصحاريها .. أو أَصِفَ لكم سُوقَ مَسْقَط الجميل ، وطريقةَ بيْعِ الماعزِ بالمَزادِ العَلَني ، أو أُحدِّثكم عَن طريقةِ ريّ البساتين بالأقنيةِ الصّخريّة المُغطّاة ، التي نُسمّيها الأَفلاج ، والتي أَخبَرني الأستاذُ بأنّ أجدادَنا العَربَ حينَ وَصلوا إلى الأندلس أنشأوا فيها نظامَ ريٍّ مُماثلٍ لأَفلاجِنا ... أو أحدثكم بأشياءَ كثيرةٍ تُفرحُكم . فأنا واثقةٌ مِنْ أنكم تفرحونَ إذا علمتم بنهضةِ أيِّ بلدٍ عربي ، ونحن الآن في عُمان ، بعدَ أنْ مَرّتْ علينا خمسُمائةِ سَنَةٍ من الحِرْمانِ والتَخَلُّفِ في كلّ شيءٍ .. صارَ عندَنا كهرباءُ ومدارسُ ومستشفيات وطُرقاتٌ وَمصانعُ وَمطابعُ وبيوتٌ حديثة ومسابحُ وتلفزيون وسينما .. وكل هذه الأشياء كُنّا لانعرِفُها الى ما قبلَ سَنَواتٍ قليلة .. وها إننا اليومَ نُسْرِعُ لِلّحاقِ بِرَكْبِ الحَضارَةِ لِنستعيدَ دَوْرنا القديمَ في خِدْمةِ تَقَدُّمِ الوَطَنِ العربيِّ وَرِفعَتِه .

« صديقتكم عَزّة »

مركز دراسات الوحدة العربية

ص.ب : ٦٠٠١ - ١١٣
تلفون : ٣٤٥٣٨٣ - ٣٤٦٨٠٢
برقيا : مرعربي
بناية « سادات تاور »
شارع ليون - بيروت/ لبنان

حقوق النشر محفوظة للمركز
الطبعة الأولى - بيروت - كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠

الثمن : ٣ ل.ل.
او ما يعادلها